مركز القطان للبحث والتطوير التربوي

العدد الرابع عشر – نيسان 2004

دورية تصدر أربع مرات سنوياً عن
مركز القطان للبحث والتطوير التربوي
رام الله – فلسطين

مفتتح

دور المثقف في السياق التربوي

وسيم الكردي

لن أجادل في هذه المداخلة القصيرة كثيراً في التعريفات، وبخاصة تعبيرات مثل «المثقف»، و«التنمية»، و«التربية»، على أهمية التعريفات، لأن التسميات وتعريفاتها تشكل جزءاً من الخطاب، أي خطاب، وهي بالتالي محملة دائماً بمعانٍ ودلالات ذات ظلال فكرية ومعرفية تنحاز إلى فكرة وتنأى بنفسها عن أخرى ... تتبنى موقفاً وتدحض آخر ظاهرياً أو ضمنياً.

ولذلك، فإن حديثاً عاماً ومعمماً سيلقي بنا في شباك العموميات والكليات والأجوبة الجاهزة التي يستساغ قبولها من البعض، أو يعسر هضمها من بعض آخر، فهي تستند إلى مرجعيات تدعي الاكتمال. وبالتالي، فإنها تدفع بنا إلى جدل لا يتيح بناء سياق حواري تشتبك فيه الأفكار، وتتفاعل فيه التصورات.

ودون دخول في تفاصيل ذلك، فإنني أقول إن للمثقف صوراً عديدة، وبأن للتنمية تصوراتٍ مختلفةً، وبأن للتربية منطلقاتٍ وتوجهاتٍ متنوعةً تتضارب كثيراً وتتلاقى أحياناً، وهي متعلقةٌ دائماً بموقف حاملها الفكري وسلوكه الاجتماعي، ولأنها كذلك، فهي بالضرورة اجتماعية، ولأنها كذلك أيضاً، فإنها تنبني من مواقع مختلفة ومن زوايا نظر متنوعة ومن مصالح متغايرة؛ فالمجتمع لا يتشكل من رؤية واحدة، وإن طغت عليه أحياناً ما تعرَّف غالباً بأنها ثقافة سائدة. ولكي لا أستثمر الوقت في الاستغراق في التعريفات والتسميات، فإنني أفضِّل أن أتحدث عن رؤية للتربية ودور المثقف

في هذا العدد

- لغة تعتبر في أميركا اليوم قضية خلافية لأسباب إيديولوجية
- الارتجال وديناميّة الفضاء الصفي
- يا معلمتي: نتعلم ونحلم ونكتب قصة
- الكتابة الإبداعية واقع وطموح
- جماليات التخريب وسحر اللامتحقق
- أسرار المحادثة
- في البحث عن سياق
- تنمية مهارة حل المشكلات لدى الطلبة
- في الذكاء العاطفي
- الذكاء متعدد الأبعاد في العملية التعليمية: النظرية والتطبيق
- رنين رياضي على أمواج الصوت الهادئ
- ثقافة الرياضيات
- توظيف المشكلات الرياضية من خلال القصة في تطوير مهارات التفكير العليا وتحسينها عند الطلبة
- حول العنف والعنف المضاد في غرفة الصف
- الإشكالية المفاهيمية لموضوع المدنيات في وعي طلبتنا
- توقعات الطلبة من المدرسة والمنهاج من وجهة نظر المعلمين
- الجودة الشاملة والمدرسة
- الخريطة الذهنية وتطبيقاتها التربوية
- تجربة استخدام البورتفوليو في البحث الإجرائي وتجربة التقييم الأصيل
- جديد المكتبة
- مهنة التعليم ودور المعلم آمال وطموحات
- تشجيع القراءة واستخدام المكتبة في مدرستك أنشطة عملية (الحلقة 3)
- المكتبة المدرسية
- نشاطات مركز القطان للبحث والتطوير التربوي
- A Gift to My Elementary School in Gaza
- A Task-Based Approach to English Language Learning
- مختارات

هيئة التحرير:

المحرر المسؤول: د. فؤاد المغربي (مدير المركز)

مدير التحرير: وسيم الكردي (المنسق)

مالك الريماوي، عبد الرحمن ابو شمالة، ليانا جابر، مها قرعان، رائد شماسنة، موسى الخالدي، نادر وهبة، وائل كشك، محمد أبو ملوح، دعاء جبر

فيها من وجهة نظر محددة، بمعنى أنني سأتحدث عن تربية بعينها، وعن مثقف بعينه، أرى كليهما ضرورياً للمجتمع الذي أعيش فيه، وأجد أن من مسؤوليتي الذاتية أن أطرحَه وأن أحثَّ عليه.

إن المثقف الذي أتحدث عنه هو ذلك المثقف الذي يرتبط بمجتمعه بعلاقة ينتج من خلالها خطابه الذاتي في علاقة حوارية مع ذوات أخرى من ناحية، ومع خطاباتها من ناحية أخرى، سواء أكانت هذه الخطابات هي خطابات مستهلكة يستعيرها ويضمّنها في خطابه، أم كانت خطابات لها صفة الفرادة، وإن اعتراها صوت «الجماعة» أحياناً. فهو لا يبني خطابه على التماهي مع أصوات الآخرين، ولا ينأى بنفسه تماماً عنها فيعزل نفسه عن سياق وجوده الاجتماعي.

ولأن المؤسسة التربوية، وفي مقدمتها المدرسة والجامعة في صيغتيهما الراهنتين، هما صنيعة الخطاب الثقافي الاجتماعي المهيمن، فإنهما بالضرورة أداتان من أدوات هذا الخطاب المهيمن، وتعملان دائماً، وبصورة حثيثة، ظاهرة أو ضمنية، على تدجين الملتحِق بهما كي يكون صوتاً متماهياً مع هذا الصوت المهمين.

لذلك، فإن المدرسة مثلاً (وهي صنيعة حديثة في المجتمع البشري في صورتها الراهنة) هي المكان الذي يعمل على إدخال الفرد في ماكنته كي ينتجه كما تشاء السلطة المهيمنة على النظام الاجتماعي برمته بصفة عامة، وعلى النظام التربوي بصفة خاصة.

فما الذي يمكن لهذا المثقف الذي أتحدث عنه أن يفعل في سياق كهذا؟ لن أقول إن فعله سيكون مستحيلاً كما يبدو للوهلة الأولى، بل عليه أن يمارس فعله في سياق لا يتخذ من «الإصلاح» منطلقاً لفعله، بل يتخذ من التغيير الجذري منطلقاً لممارساته الفكرية والتطبيقية. ولذا، فإن فعله يغدو فعلاً تحررياً من وطأة السائد والمألوف والمتعارف عليه. إن هذا الفعل التحرري الذي يمكن التطلع إليه يغدو في بلادنا، ويا للمفارقة المضحكة أو المحزنة، فعلاً غائباً، فكيف يستوي في بلاد يتطلع أهلها للتحرر من ربقة الاحتلال، يغوصون في وحل تربية تقليدية عقيمة لا تتيح لمن هم في داخلها من أساتذة، وتلاميذ، وأهالي أيضاً، من أن يجدوا سياقاً ليفكروا، وليحللوا، ولينتقدوا، وليضعوا البدائل، فيغدون في حجرات الصفوف الإسمنتية جزءاً من برودتها، فلا يسألون ولا يحاورون، بل يتلقون وتنسكب المعلومات والمعارف في أذهانهم التي تغدو كوعاء جاهز للسكب فيه، ويغدو التلقين هو سيد الموقف وصاحب الامتياز.

ولأن هذه المؤسسة التربوية أو الماكنة الاجتماعية هي المكان الذي يمر به الجميع تقريباً، فهي أكثر المؤسسات الاجتماعية رسوخاً، وربما تأثيراً في صياغة فقط ما يتعارض مع فكرة الانعتاق الإنساني والتألق الإبداعي. ولأنها في هذه الوضعية التي تتيح لها ذلك، فإن تفكيك صيغتها الراهنة لا يقع على عاتق التربويين فقط، ولا على كاهل المثقفين فقط، بل على عاتق المجتمع برمته! وما نراه في بلادنا أن غياباً يكاد يكون مطلقاً للمجتمع عما يجري في هذه المؤسسة، ولنأخذ مثالاً واحداً يدلل على هذا الأمر، وهو مثال إنتاج مناهج فلسطينية جديدة، فهل يعقل أن تتوافر فرصة الإنتاج هذه، وللمرة الأولى في بلادنا، ولا تجد لها مكاناً في حوار اجتماعي؟!

إن دور المجتمع، بما في ذلك دور المثقف، هو دور نقدي، وانعتاقي، وحواري، ودون ذلك، فإن ما تنتجه هذه الماكنة التربوية سيستمر. ولن تكون أمام مجتمعنا إمكانية لتنشئة أجيالٍ إذا نظرنا في دورها المستقبلي فقط، بل علينا أيضاً أن ننظر في دورها الراهن، وفي عمرها الحالي أيضاً، وأن تكون هي فاعلة في تحقيق ذلك، لا أن تكون موضوعاً لفعلنا.

إن غياب المثقف عن الفعل في المجال التربوي هو جزء من غياب المجتمع ككل، وغياب المجتمع ككل هو أيضاً ناجم بصورة جزئية عن غياب المثقف. وعلينا أن لا ننسى أيضاً أن المثقف الذي أتطلع أليه ليس موجوداً في المجتمع خارج المؤسسة التربوية، بل إنه موجود في داخلها أيضاً، سواء أكان معلماً أم تلميذاً أم إدارياً ... أم غير ذلك، وعليه أيضاً تقع مسؤولية التحرر والانعتاق من إساره بمساندة الاجتماعي له.

لعل اشتغالاً على تعميق رؤية الانعتاق هذه، ووصل الرغبة في الانعتاق السياسي بالانعتاق الاجتماعي أيضاً وتضفيرهما معاً، هو الذي سيتيح إمكانية التغيير المتوازن والحقيقي، وإلا فإن معنى الانعتاق السياسي سيغدو مبتوراً إذا ما اقتصر على مجاله وكبلنا بإسار الاجتماعي، وبخاصة التربوي الذي هو مدار حديثنا الآن، لأن إحداث تغيير في جانب لن يدوم طويلاً إذا لم تسانده الجوانب الأخرى. وهذا يضعنا أمام مسألة أخرى ذات أهمية قصوى، وهي أن روعة الأفكار وعظمتها وجمال التصورات وحداثتها ليس كافياً ليرحَّب بها، لأن المجتمع أي مجتمع، بما في ذلك مجتمعنا، ينتظم ضمن علاقات القوة، وهي علاقات متعددة المستويات ومتنوعة الأشكال، ولا تقتصر على القوة المادية فحسب، لذلك فإن أي تغيير يشاء المثقف إحداثه في مجتمعه لا تنفتح الطريق له فقط عبر دور وعظي إرشادي توجيهي، بل يقتضي بناء قوة الضغط والتأثير في كل تجلياتها الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والأخلاقية أيضاً.

ولا يمكن حدوث ذلك إذا ما انعزل المجتمع واشتغل على أفكاره وثقافته بمعزل عن السياق الإنساني، وهناك فرق جوهري بين التواطؤ مع ما تبتغيه قوى عالمية لها مصالح ذاتية أنانية لا تأخذ بعين الاعتبار سوى ذاتها، ومن ثم فليذهب العالم إلى الجحيم، وبين مواقف أخرى من داخل مجال هذه المصالح ومن خارجها أيضاً تتضمن رؤية جديدة للإنسان في القرن الحادي والعشرين. إن التفاعل الحي والحواري مع ما يجري في العالم يغدو ضرورياً كي تتضافر الأفعال وتتكامل القوى؛ لأنه دون ذلك فإن لمثقفنا وتربيتنا أن تغدو مدجنة أو معزولة، وفي الحالتين فإننا سنكون الخاسرين. وبالتالي، فإن علينا أن لا ننأى بنفسنا عما يجري تحت شعار التخوف من تغول العولمة في تعريفاتها الأكثر بشاعة، وبين العالمية التي تتطلب تفاعلاً حراً في الفكر والممارسة، لا انسحاباً أو رفضاً مجانياً عبثياً فقط، وعلينا أن نشتغل على إحداث التغييرات التي نعتقد بضرورتها في مجتمعنا، وأن لا نتجنبها خوفاً من الوقوع في شرك ما يطلبه منا الآخرون ويضغطون باتجاهه، ولأنني ضربت مثال المناهج سابقاً فسأضربه ثانية في هذا السياق أيضاً: فعلينا مثلاً أن لا نتهيب أو نرفض تغيير مناهجنا لأن أمريكا هي التي تطلب منا ذلك، وتحاول إجبارنا على فعله! فكلمة الحق التي يراد بها باطل لا تفضي إلى أن الحق سيغدو باطلاً، بل إن المراد هو الفيصل! إن مناهج التعليم في الوطن العربي بحاجة إلى تغيير جذري، ولكن ليس كما تريد هي لنا، بل ما نبتغيه لأنفسنا عبر حوار اجتماعي شامل وعام لا يمكن له أن يتحقق دون توافر مناخات الحرية التي نفتقدها ليس في وطننا فقط، بل في عالمنا العربي أيضاً.

إن خطاً دفاعياً عن مناهجنا التربوية أمام الكولونيالية المتجددة لن يتأتى له الصمود إذا كان ردة فعل لضغوطات الخارج، لأن ذلك سيفضي إلى تمترسنا في خندق المدافعين عن مناهج بالية وغير ملائمة، نحن بحاجة إلى الفعل، الفعل النابع من الذات ومن التجربة الإنسانية العميقة لحضارتنا في تفاعلها مع ثقافات وحضارات الشعوب، إن حاجتنا إلى التغيير هي التي ستدفع بنا إلى مواجهة التهجين أو التدجين، سواء أكان نابعاً ذلك من بيننا أم كان آتياً من خارجنا. نحن بحاجة إلى إنتاج خطاب تربوي جديد ومختلف يضعنا في موقع يليق بالإنسان الحر والمتحرر والمتجدد أيضاً.

وهذا يفضي بنا إلى الانتباه إلى أننا لسنا مجتمعاً يشتغل على النهوض من إشكالياته، ويبحث عن تقدمه وازدهاره فقط، فنحن ما زلنا نعيش تحت نير الاحتلال، وبالتالي فإن أي فعل تربوي لا يضع ممارساته التربوية في سياق التحرر من الاحتلال كشرط أساسي من شروط التقدم الاجتماعي، سيكون خاوياً وسيكون ضرباً من العبث. إن الخلاص من الاحتلال يتطلب ثقافة تربوية انعتاقية وتحررية، فليس ممكناً لنا التحليق في فضاء النظريات التربوية أو الممارسات النموذجية التطبيقية إذا لم نتمكن من رؤيتها في سياقنا الواقعي الذي نعيش فيه، وهو سياق التحرر من ربقة الاحتلال من ناحية، ومن ربقة التخلف الاجتماعي من الناحية الأخرى.

ومن المفيد هنا أن نذكر أننا عشنا ونعيش في مجتمع نابض يتوق إلى الحرية وإلى التقدم أيضاً، وقد ولّدت خبراتنا وتجاربنا الكثير بكل ما فيها من ملامح إيجابية وما تخللها من نواحٍ سلبية، ولكي يستمر المجتمع في حيويته عليه أن لا يقع أسير اليأس أو أسير أوهام ثقافية تقتضي التحرر منها، إن إبقاء المجتمع في جذوته الحية يتطلب إعادة النظر في مسلمات كثيرة، وفي بنى معرفية اجتماعية متعددة، وهذا لا يمكن له أن يقوم دون اعتراف بتنوع المعارف والخبرات ودون خلق مناخات تتيح لها النمو عبر الحوار الحر والفعال، وكل هذا لا يبدأ دون فتح نوافذ حقيقية لهذا الحوار، وترك الأفكار تتفاعل، والتجارب تتلاقى، والخبرات تتمازج. ولعل في ذلك ما يفضي إلى تحقق معرفة جديدة، معرفة تقوم على المادي والفكري في علاقاتهما المتداخلة. إن هذا الفعل الحواري هو الشرط الأول لأي دور، ولأي تغيير أيضاً، فهو الذي يتيح للتجارب والخبرات الفردية والجمعية على تنوعها واختلافها أن تجد لها مكاناً في مجتمع يرنو إلى الانعتاق والتقدم، ولكي يكون النمو في الحقل التربوي ممكناً، فإنه يتطلب نمواً في الحقول الأخرى التي تقوم بدورها أيضاً في تغذية بعضها بعضاً، ولذا فإن التغير في مجال التربية لا يمكن له أن يكون حقيقياً إذا ما بقي منعزلاً وانشغل فيه تربويون فقط. إن أدوار الآخرين في المجالات جميعها لإحداث أي تغيير حقيقي وعضوي وذي مغزى يبقى ضرورياً ولازماً وشرطاً، وهذا دور يقع على عاتق مثقفين عضويين هم جزء من كيانهم الاجتماعي لا يتعالون عليه، ولا ينسحبون منه، بل يسخرون إمكاناتهم فيه، لأن في نموه نمواً لهم، وفي نموهم نمواً له أيضاً.

قدمت هذه المداخلة ضمن «ورشة آفاق التربوية السنوية: حول ثقافة المجتمع وفكره التربوي بين واقع الحال وتحديات النظام العولمي الجديد» التي نظمتها جمعية الثقافة والفكر الحر – خانيونس في 2003/12/31.